[68] وإنما قال " بيننا " لأنه ضم المؤمنين به إلى نفسه، وقد كان الكافرون من قومه هددوا إياه والمؤمنين به جميعا إذ قالوا: " لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا " (1) فضمهم إلى نفسه وهاجر قومه في عملهم وسار بهم إلى ربه وقال: " ربنا افتح بيننا... الخ ". وقد استمسك في دعائه باسمه الكريم: " خير الفاتحين " لما مر أن التمسك بالصفة المناسبة لمتن الدعاء تأييد بالغ بمنزلة الإقسام، وهذا بخلاف قول موسى (عليه السلام): " رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين " المنقول آنفا، لما تقدم أن لفظه (عليه السلام) ليس بدعاء حقيقة بل هو كناية عن الإمساك عن الدعوة وإرجاع للأمر إلى الله فلا مقتضي للإقسام بخلاف قول شعيب. ومن ذلك ما حكاه الله من ثناء داود وسليمان (عليهما السلام) قال تعالى: " ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين " (2). وجه الأدب في حمدهما وشكرهما ونسبة ما عندهما من فضيلة العلم إلى الله سبحانه ظاهر، فلم يقولا مثل ما حكي عن غيرهما كقول قارون لقومه إذ وعظوه أن لا يستكبر في الأرض بماله: " إنما اوتيته على علم عندي " (3) وكما حكى الله عن قوم آخرين: " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون " (4). ولا ضير في الحمد على تفضيل الله إياهما على كثير من المؤمنين، فإنه من ذكر خصوص النعمة وبيان الواقع، وليس ذلك من التكبر على عباد الله حتى يلحق به ذم، وقد ذكر الله عن طائفة من المؤمنين سؤال التفضيل ومدحهم على علو طبعهم وسمو همتهم حيث قال: " والذين يقولون ربنا - إلى أن قال -: واجعلنا للمتقين إماما " (5).

_____

(1) الأعراف: 88. (2) النمل: 15. (3) القصص: 78. (4) غافر: 83. (5) الفرقان: 74.

_____